نجم من المشرق غرّب

لا أدرى إلى أىٍّ حد نستطيع أن نشارك صاعداً البغدادى فى محنته بين أدباء قرطبة وعلمائها ؛ فهو قد رحل إلى الأندلس سنة ٣٨٠ هـ بعد أن زوّد نفسه بأشياء كان يجب أن يزود بها نفسه : زوّد نفسه باللغة والأخبار وعلم الشعر ، وكان حاضر البديهة إلى حد مدهش جدًّا ، وكان إلى هذا حسن العشرة . فإذا اجتمع له هذا وطّدَ العزم على أن يرحل من بغداد إلى الأندلس ، وهى رحلة طويلة لا يفكر فيها إلا من أعدّ عدته ووثق من نفسه. إنها رحلة أديب مشرقىّ إلى بلاد فيها بيئة أدبية ممتازة ، وفيها أفراد كثيرون يقدرون الأدب ويجزلون العطاء . إنه آت من المشرق فلا بدّ أنه سيكون موضع حفاوة وتقدير . أليس المشرق هو الذى يبعث للأندلس ببضاعته الممتازة من النحو واللغة والأخبار والأشعار ؟ أليس للمشرق فى الأندلس هذا المركز الممتاز مركز الأستاذ من التلميذ ؟ وكم من العلماء الشرقيين ذهبوا إلى الأندلس قاصدين ما قصد إليه صاعد فى رحلته تلك فلاقوا نجاحاً أظهرهم فى حياتهم فخلدهم بعد موتهم ! هذا أبو على القالى قام بمثل تلك الرحلة التى يقوم بها صاعد فقوبل هناك بالترحيب ، وتهافت عليه الأمراء والأدباء ، وترك بسبب هذه الرحلة أثراً أدبيًّا عظيما . على أن صاعداً كان يحسّ من نفسه قدرة فى ناحية يمتاز بها عن القالى وغير القالى ؛ فهو ذكىٌّ لبق ، وهو حاضر البديهة بحيث يستطيع أن يُعد جواباً سريعاً لكل مسألة فى النحو أو اللغة أو الشعر أو الأخبار . وهل هناك مايمنعه من الكذب والادعاء فى بعض الأحيان إذا لزم الأمر ! فسيجوز كذبه واختلاقه لا شك على أدباء الأندلس هؤلاء إذا عرضت مسئلة من اللغة أو خبر أو شعر ... إن المشارقة أصحاب هذه اللغة ، والمشارقة رواة الشعر العربى وعلماؤه الذين يتحدثون به للناس ، وعلم الأخبار علمهم لأنه فى أساطير البلاد العربية ووقائعها وأيامها . وأين بلاد الأندلس من هذا ! ليرحل صاعد إذن إلى تلك البلاد ،

وليملأ حياتهم الأدبية : هناك بمثل ما ملأ بها القالى وغيره من المشارقة ، وليزدهم هو أشياء من عنده مادام له هذا الذكاء النافذ وهذه البديهة المواتية وهذا الضمير العلمى العريض الذى يجوّز له الاختلاق فى اللغة والادعاء فى المعرفة !

وعلى كل حال فهى رحلة جريئة يقوم بها صاعد البغدادى بعد أبى على القالى، فيصل إلى تلك البلاد مزوّداً بهذا الذكاء النادر وهذا الضمير العلمىّ وهذا العلم المشرقىّ . سيكتب هناك رسائل منمقة عظيمة الحظ من الأداء الفنىّ لهؤلاء الأمراء الأندلسيين الذين سيستكتبونه ، وسيتصل هناك بالمنصور بن أبى عامر ذلك الحاجب القوى الشكيمة الكريم العطاء ، الذى يجمع أدباء قرطبة جميعاً حوله ويعقد لهم المجالس ويشجعهم بالمال والمناصب . وليس للمنصور بن أبى عامر هذا قدم راسخة فى العلم ، ولكنه يجلس دائماً إلى هؤلاء الأدباء القرطبيين ، فيصغى الى مدائحهم أو بعض أشعارهم وأوصافهم ، وقد يشاركهم فى بعض الحديث فى نقد شعر أو لغة أو خبر . لكنه مع هذا محدود الأفق ، وربما كان الباعث على حبه للأدب والأدباء منافسة ملك عظيم كانت له شهرة حربية وأخرى علمية ، فأراد المنصور أن يبذّه فى كلتيهما ، ذلك هو الخليفة عبد الرحمن الناصر الذى استقدم اباعلىّ القالى . ولم تحدثنا المصادر القديمة أن الحاجب المنصور استقدم صاعداً اللغوى البغدادى إلى بلاده ، ولكنا نلحظ هذا حين نقرأ حديث ابن بسّام صاحب كتاب الذخيرة وهو يترجم لصاعد ويتحدث عن حياته مع المنصور فيقول: إن المنصور كان يطمع فى أن يُعنَّى به على أبى علىّ القالى . وسواء استقدم المنصور صاعداً أو لم يطلب إليه القدوم وإنما رحل صاعد من تلقاء نفسه بهذه الآمال وبهذه البضاعة ، فالذى حدث هو أنه بعد وصوله اتصل بالمنصور بن أبى عامر ، ووجد المنصور فيه ضالته ليكون فى مجلسه نجماً مشرقيًّا لألاءً ربما فاق هذا النجم الذى كان قبله . واستطاع صاعد أن يصل إلى ما كان يطمع فيه ، وهاهو ذا قد اتصل بهذا الرجل العظيم ، وهذه خطوة موفقة ، فلا عليه بعد ذلك إلا أن يظهر على أدباء قرطبة وعلمائها ليكون فى المكان اللائق به وهو ذلك الأديب المشرقىّ الكبير الذى جاء إلى بلادهم لينقل إليهم آداب الشرق وعلومه . فأما المنصور فقد قرّبه إليه وهو غير واثق من علمه ؛ لأن المنصور لم تكن له هذه المكانة التى تتيح له أن يحكم عليه ، وهو يريد أن يعرف مكانة هذا الأديب بين أدباء قومه . فليجمع إذن بينه وبينهم ،

وليحرّشهم به ويحرشه بهم ، ليرى هل يظهروا عليه او يظهر عليهم ، ثم إذا وجد صاعداً عند حسن الظن به اتخذه لنفسه واصطفاه ، وكلّفه أن يضع كتاباً مثل الذى وضعه القالى للخليفة الناصر ؛ فإن أعجزوه وظهروا عليه فقد أرضى المنصور بذلك كبرياءه وكبرياء هؤلاء الأدباء الأندلسيين الذين بدأوا ينظرون إلى هؤلاء المشارقة نظرة خاصة فيها كثير من الغيظ والتحدى ...

ويدعو المنصور بمجلس حفل جمع فيه بعض العلماء والأدباء ، وقدّم إليهم صاعداً تقدمةً يُعرف منها أن الأمر جدّ . يقول لهم : هذا الرجل الوافد علينا صاعد يزعم أنه متقدم فى هذه الآداب التى أنتم سُرُجها الضاحية ، وأهلتها السارية ، وأُحبّ ان يُمتحن ماعنده . ثم يوجّه إليه فيدخل صاعد والمجلس قد احتفل ، فيأخذه شىء من الخجل ، لكن المنصور يرفع من مجلسه ويؤانسه ، ويسأله عن أبى سعيد السيرافى فيقول صاعد إنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه . وكأن هؤلاء الأدباء القرطبيين المجتمعين فى هذا المجلس كانوا متلقفين لأول كلمة ينطق بها هذا الأديب المشرقىّ ، فما كاد يقول هذا حتى بادره العاصمىّ ، أحد هؤلاء الأدباء ، بالسؤال عن مسئلة من الكتاب فيرتج على صاعد ولا يعرف الجواب ، فيعتذر ويقول إن النحو ليس رأس صناعته ولا هو جُلّ بضاعته . ولا ندرى وقع هذا الإخفاق الأول فى نفس المنصور ، فربما حزن لخيبة ظنه بصاحبه ، وربما فرح لظهور أحد هؤلاء النجوم القرطبيين الذين فاقوا المشارقة . وانتظر المنصور ما سيكون بين أدبائه وبين صاعد بعد أن يحدّد لهم صاعد اختصاصه كما نقول نحن فى هذه الأيام . والأدباء القرطبيون متعجلون هم أيضاً معرفة اختصاص هذا الرجل ، فيسرع الزُّبيدىّ ويقول له :

— فما تحسن أيها الشيخ ؟

— حفظ الغريب

— ماوزن أولق ؟

فيضحك صاعد ، وربما تكلف هذا الضحك ويقول :

— أمثلى يُسأل عن هذا ؟ إنما يسأل عنه صبيان المكتب .

— فقد سألناك ولا نشك أنك تجهله .

وهنا يتغير لون صاعد قليلا ، لكنه لا يجد مندوحة عن جواب حاضر سريع لعله الصواب فيقول :

— افعل

فيهتف الزبيدى فى أصدقائه ساخراً شامتاً ويقول :

— صاحبكم ممخرق !

— إخال الشيخ صناعته الأبنية ؟

— أجل

— وصناعتى أنا حفظ الأشعار ورواية الأخبار وفك المعمّى وعلم الموسيقى.

هذه إذن صناعات صاعد حدّدها لهم تحديداً بعد أن أخفق أول أمره معهم فى هذه المسئلة من كتاب سيبويه ، وبعد أن أخفق فى معرفة وزن أولق ، وفى هذه المرة ينبرى له ابن العريف بعد صاحبيه الزُّبيدى والعاصمى فيسأل صاعداً بدوره فى عدة مسائل من هذه العلوم التى اختص بها صاعد ، فيظهر عليه صاعد حتى جعل لا تجرى فى المجلس كلمة إلا أنشد عليها شعراً شاهداً وأتى بحكاية تجانسها ، وينتصر صاعد فى هذه الجولة انتصاراً باهراً ، فيظهر المنصور له إعجابه به ويريه كتاب النوادر لأبى على القالى . ولم تخف هذه الإشارة على ذكاء صاعد فهو لا يكاد يلقى على الكتاب نظرة سريعة حتى يقول للمنصور : إن أراد المنصور أمليتُ على مقيّدى خدمته وكتّاب دولته كتاباً أرفع منه قدراً وأجل خطراً ، أدخل فيه خيراً مما أدخل أبو على . ويطمئن المنصور لهذا ويعلم أن بغيته من صاعد توشك أن تتحقق ، فسيضع له كتاباً خيراً من هذا الكتاب العظيم الذى وضعه القالى للناصر ، وسيكون عنده نجماً مشرقيًّا لامعاً يحدّث أدباء قرطبة فى مجلسه ! ينصرف المنصور مطمئنا إلى هذا ، وينصرف أدباؤه القرطبيون وقد عرفوا مواضع القوة ومواضع الضعف عند صاحبهم ، وينصرف كذلك صاعد وقد عرف أن مكانته من هؤلاء القرطبيين ليست هذه المكانة التى كان يظنها ، فقد لاقوه خصوماً قبل أن يلقوه أصدقاء ، وقد اضطروه إلى الحرج والإخفاق عند أول لقائه بهم وتعرّفه عليهم . ويجيل صاعد فى نفسه أشياء كثيرة حين يذكر أنه توقف فى تلك المسئلة من كتاب سيبويه ، وأنه لم يعرف وزن أولق — ترى هل كان يجوز له أن يعترف بعجزه أمام المنصور ؟ لقد كان يجب أن يبدهم كما بدهوه ، حتى لو أدّاه هذا إلى الاختلاق والتلفيق . ماذا لو أختلق وماذا لو لفّق فى اللغة وهو من أصحابها ، وفى الشعر وله القدرة الفائقة على الارتجال ، وعنده خزانة من الحفظ يستطيع أن يعتمد عليها ؟

ومهما يكن من أمر فهؤلاء أندلسيون قبل كل شيء ! إنه أتى هذه البلاد ليتألق نجمه ، وهاهو ذا قد اتصل بالمنصور ، وهاهو ذا قد نيط به هذا العمل الجليل وُكل مثله إلى أبي علي ! لقد وعد أنه سيضع كتاباً يدخل فيه أشياء لم يدخل مثلها أبو علي . غداً سأكون بالمجلس الجامع بقرطبة أملي كتابي ! فلا يعنيني بعدُ هؤلاء القرطبيون الماكرون ! والحقيقة أن صاعداً رغم منطقه هذا مع نفسه توقع أن حياته لن تكون هادئة مع المنصور وحوله هؤلاء القوم ، إلا انه اعتمد قبل كل شيء على بديهته وذكائه وحسن عشرته وجميل حيلته ، وهذه عدة المتصلين بالملوك والأمراء . . .

وأخذ المنصور وأصدقاؤه من الأدباء القرطبيين يفكرون في أمر صاعد هذا وما مقدار ما عنده ، وينتهي المنصور يوماً إلى نوع من الامتحان جديد ، فهذا أديب مشرقي يدّعي أنه حاضر البديهة ذكيّ الخاطر ، فهل إذا رأى منظراً وصفه على البديهة مثل شعرائنا الأندلسيين ؟ إني لأحبُّ أن أبدهه بمنظر لم يره في مشرقه هذا الذي جاء منه ، وهل للشرق هذا الترف الذي نحن فيه ! إن صاعداً لن يقوى على وصف ماتراه عيناه عندنا بداهة وارتجالا . ويُعِدّ المنصور طبقاً فيه سفائف من ضروب النواوير ، ويضع فوق السفائف جوارى ياسمين ، وتحت السفائف بركة ماء حصاها اللؤلؤ ، وكان في البركة حية تسبح . ويدخل صاعد فيمثل هذا المنظر على ذلك الطبق بين يديه ويقول له المنصور : إن هذا يوم إمّا أن تسعد فيه معنا ، وإما بالضد عندنا ؛ لأنه قد زعم قوم أن كل ماتأتي به دعوى ، وقد وقمتُ من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ما توهمت أنه مثل بين يدي ملك قبلي شكّه ، فصفه بجميع مافيه . وتمضي برهة وجيزة جمع فيها صاعد كل خاطر ، ثم أخذ يرتجل الشعر القوي العذب في وصف هذا المنظر بجماله ودقائقه . ويرى المنصور وأدباؤه القرطبيون أن صاعداً المشرقيّ لم يقلّ عنهم إن لم يزد في وصف هذه المناظر المترفة الدقيقة التي ظنوا أنهم امتازوا بها عن المشرقيين ، ولم يفت صاعداً كذلك أن يمزج هذا الوصف بمدح المنصور كعادة القوم هناك ، فبدأ شعره بالخطاب إلى المنصور :

أبا عامرٍ هل غيرُ جدواكَ واكفُ ... وهل غيرُ من عاداكَ في الأرض خائف؟
يسوق إليك الدهرُ كلَّ عجيبةٍ ... وأعجبُ ما يلقاه عندك واصفُ

والمنصور وإن ارتاح إلى هذا الاستهلال الجميل إلا أنه متعجل ما سيأتى به صاعد من الوصف ، وصاعد يحقق هذه الرغبة فى نفس المنصور وفى نفس أصحابه سريعاً ، فهو لم يزد على هذين البيتين فى مدح المنصور ، ثم أسرع إلى الوصف فى شجاعة باهرة وقدرة عجيبة : وصف هذه الوشائع من النَّوْر فادعى أنها قد صاغها الحيا ثمنها عبقر ورفارف ! وزعم أن تلك الجوارى بين ضروب النواوير هن ظباء كُنُس مستكنة قد ظللتها سفائف من الياسمين ... إلى آخر هذا الشعر اللطيف الذى ارتجله صاعد فى وصف هذا المنظر . واستغربت الجماعة هذا الشعر الذى جاء بديهة ، وبلغ إعجاب المنصور به أن كتبه بخطه . ثم ينظر المنصور فيقول : أجدت إلا أنك لم تصف هذه الجارية ، فيقول صاعد فى وصف البركة والحية شعراً جميلا هو الآخر من نفس الوزن والروى . وبعد أن ينتهى من هذا الشعر ويشعر بنشوة الظفر ، يخاطب المنصور قائلا :

إذا قلتُ قولا أو بدهتُ بديهةً فكلّفنى لها إنى لمجدك واصفُ

ويأمر المنصور له بألف دينار ومائة ثوب ما بين غلائل وطيقان وعمائم ، ثم أجرى عليه ثلاثين ديناراً ، وألحق فى ديوان الندماء مع زيادة الله بن مضر الطبنى وابن العريف وابن التيّانى وغيرهم ، وكان هذا أجمل ردّ من المنصور على هؤلاء الأدباء القرطبيين الذين ما فتئوا يذكرون له أن صاعداً لص كبير ، وأن كل ما يأتى به أشياء تنحلها من عند غيره ؛ فها قد رأى منظراً عجباً ومع ذلك استطاع أن يصفه أجمل وصف حتى استغربوا له هذه البديهة !

ويجلس المنصور يوماً ومعه صاعد وابن العريف ، فتدخل عليه وردة عذراء لم تستتم فتح كمامها ، فيبسم وينظر لصاعد ، ويعرف صاعد معنى هذه النظرة فيرتجل بيتين على البديهة :

أتتك أبا عامرٍ وردةٌ يذكّرك المسكُ أنفاسها
كعذراءَ أبصرها مبصر فغطتْ بأكمامها رأسَها

إنه حقًّا شاعر خصب ذكى ! إنها صورة جميلة تلك التى شبّه بها التفاف أوراق هذا البرعم . فهذه الوردة فتاةٌ عذراء رآها مبصر فخجلت منه فكفّت وجهها بكميها ! أليست هذه صورة فنية مترفة كهذه الصورة المترفة الأندلسية ؟

إن صاعداً حقاً باهر جمع إلى أصالة المشرقيين ترف الأندلسيين ! ويسمع ابن العريف هذا من المنصور أو يقرؤه فى عينه ، فيعمد إلى حيلة أخرى لعلها ترجع هذا المنصور عن صاحبه الذى فتن به، وهو واثق أن صاعداً هذا دجّال ، أتراه كان عرف ما أعده المنصور له من مناظر هذا الطبق فاحتال حتى صنع هذا الشعر وادعى أنها بداهة ؟ وهل ترى كان يعرف أن المنصور سيدخل عليه بوردة الآن ؟ وإذا كان صاعد على هذه المكانة من العلم والبداهة فلا بد أن يوهن من هذه الثقة ؛ فلقد استفحل خطرها ولم يعد لها إلا أمر يُبيّت وكيد يكاد . . . وفى هذه الغمرة من نشوة المنصور ونشوة صاعد بوصف تلك الوردة هذا الوصف الجميل البداهى ينهض ابن العريف ويدّعى للمنصور أن هذين البيتين ليسا لصاعد وإنما هما لغيره ، ويذكر أن بعض البغداديين بمصر أنشدهما إياه لنفسه ، ثم يقول إن البيتين مكتوبان على ظهر كتاب عنده ، فيعجب المنصور لهذا ويطلب منه أن يريه هذا الكتاب ، ولا بد أن ابن العريف كان قد أعدّ عُدّته ، فأسرع بالخروج ليعود إلى المنصور بهذا الشعر بأقرب فرصة ، وجرى راكباً حتى أتى مجلس ابن بدر ، وكان أحسن أهل وقته بديهة ، ووصف له ما جرى ، فصنع ابن بدر له هذه الأبيات الرقيقة مشتملةً على بيتى صاعد ليثبت أنهما ليسا له وأنما هما ضمن أشعارٍ لغيره :

عَشوتُ إلى قصر عَبّاسةٍ ... وقد جَدَّلَ النومُ حُرّاسَها
فألفيتُها وهى فى خِدرها ... وقد صدّع السكرُ أنّاسَها
فقالتْ : أسارٍ على هجعةٍ ... فقلت بَلى فرمتْ كاسَها
ومَدّتْ يديها إلى وردةٍ ... يُحاكى لك الطيبُ أنفاسَها
وقالت خف الله لا تفضحنّ ... فى ابنةِ عمّك عبّاسَها
فوليّتُ عنها على عِفّةٍ ... وما خنتُ ناسى ولا ناسَها

فطار بها ابن العريف ، وعلّقها على ظهر كتابه بخط مصرى ، وورّى وتحيل ، واصطنع مداداً أشقر ليظهر الخط قديماً ، ودخل بها على المنصور ، فلما رآها اشتد غيظاً وأيقن أن صاعداً دجّال منافق !

وإذن فهؤلاء القرطبيون يستعملون سلاحاً دنيئاً كهذا السلاح الذى استعمله ابن العريف ! إنه فى الحقيقة سلاح خطر ! لقد استطاع ابن العريف إذن

أن يوهم المنصور أن صاحبه لص سارق ، وما من شك فى أن صاعداً أخذ يميز بين بيته وهذه الأبيات التى التفت فيها . لقد تأمل صاعد هذه الأبيات التى اخترعوها وكتبوها بخط قديم وضمنها بيتاه ـ فوجدها تافهة بالقياس إلى بيتيه الجميلين .

ماذا قال هذا القرطبى الأحمق ؟ لقد عشا إلى قصر عباسته حين نام حراسها . تماماً مثلما فعل الفرزدق وعمر ! ثم ألفاها فى خدرها وألفى أهلها نياماً ، فحين رأته أشفقت عليه أو أشفقت على نفسها ، لا أدرى : وسألته هل وصل إليها وهم هاجعون — تعنى حرّاسها — فيقول لها نعم . أى شئ فى هذا ؟ دعوا أيها القرطبيون هذه المخاطرات الفرزدقية والربعية لنا . وهل كان يجمل بالفرزدق أو عمر بن أبى ربيعة أن يظهر لها هذا الرفق المخنث حين تسأله ألا يفضح عمه العباس فيها ؟ ما أثقل هذه العفة من ذلك القرطبى المخنث ! وكذلك أخذ صاعد يجيل مثل هذه الفكر حتى أرضى نفسه من هذه الناحية الفنية الخالصة .

وتكثر هذه المجالس وتتصل والمنصور تارة سعيد بصاحبه لهج بالثناء عليه ، وتارة ضيق الصدر منه قليل الثقة فيه ؛ لكنه على كل حال يحتال عليه ويداريه حتى ينتهى من كتابه هذا الذى يكتبه ليقدمه إليه . . . يثبت للمنصور أن صاعداً يكذب ، لكنه مع ذلك يستبقيه ، فهو على كل حال ذكى أريب ، خفيف الظل حسن العشرة ، له مايروع فى بعض الأحيان . لكن صاعداً لا يقف فى كذبه عند حد . فقد دخل صاعد على المنصور يوماً وبيده كتاب ورد عليه من عامل له اسمه ميدمان بن يزيد من أهل يابرة يذكر فيه القلب والتربيل وما عندهم من معاناة الأرض قبل زرعها . فينظر المنصور إلى صاعد ويقول له : يا أبا العلاء ، وقع إلى من الكتب كتاب القوالب والروالب لميدمان ابن يزيد . فقال صاعد : نعم رايته فى نسخة أبى بكر بن دريد بخط كأ كرع النمل ، فى جوانبها علامات الوضّاع . فقال له المنصور : أما تستحى من هذا الكذب ؟ هذا كتاب عاملنا ببلدة يابرة يعلم بالذى تقدم من صفة الأرض ، وإنما صغت هذا تجربة لك ، فجعل صاعد يحلف أنه ما كذب وأنه أمر وافق .

وقال له المنصور يوما : ما الخنبشار فى اللغة ؟ فقال له صاعد : حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب ، وفى ذلك يقول شاعرهم :

لقد عُقدتْ محبتها بقلبى كما عُقد الحليبُ بخنبشار

أى بديهة مواتية وأى جرأة على الاختلاق والكذب ! وقال له يوماً وقد قدّم طبق فيه تمر : ما التمركل فى كلام العرب ؟ فقال صاعد : يقال تمركل الرجل تمركلاً إذا التفّ فى كسائه . ويحتار المنصور فى أمر هذا الرجل الذى يصوغ الكذب هذا الصوغ العلميّ الغريب ، ويجهد صاعد نفسه ليملأ حياة المنصور من كل ناحية ، فيقدم له كثيراً من أدب الشرق وأخباره ، ويضع له كتباً فى القصص ويختار لها عناوين غريبة ، من ذلك كتاب صنّفه له بعنوان الجوّاس ابن قعطل المذحجى مع ابنة عمه عفراء . ويقول يا قوت صاحب معجم الأدباء « وهو كتاب لطيف جدًّا انخرم فى الفتن التى كانت بالأندلس فسقطت منه أوراق لم توجد بعد » . وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب حتى رتب من يقرؤه بحضرته كل ليلة ، كما صنف له أيضاً كتاب الهجَفْجَف بن غُيْدقان بن يثربيّ مع الخنسَوْت بنت مَحرمة بن أنيف !

وينتصر صاعد على خصومه من أدباء قرطبة بهذا ؛ فهو وإن كان يكذب فى اللغة ويكذب فى الشعر ويكذب فى هذا القصص الذى يصنعه لكنه كذب أشبه بالصدق . وهل استطاع هؤلاء الأدباء أن يدفعوا قوله إن الخنبشار حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب ! ومن أين له هذا الشاهد الحاضر ! وهو قول قائلهم : « لقد عقدت محبتها (البيت) » وكذلك اخبار الجواس هذا مع ابنة عمه عفراء إنه قصص البادية ، وليس المهم فيه أن يكون صدقاً أو كذباً ، ولكن الغرض منه أن ينقل القوم إلى حياة الأعراب ، فيرون جهم العذرى وحياتهم البدوية ، وقد استطاع صاعد أن يصور هذا لهم أجمل تصوير . وملك صاعد على صاحبه أمره بما كان يصطنع من حسن العشرة ولطف الحيلة . دخل عليه المنصور يوم أُنس وكان صاعد قد اتخذ قميصاً من رقاع الخرائط التى وصلت إليه فيها صلات المنصور ولبسه تحت ثيابه ، فلما حضر المجلس ورأى فرصة لما أراد تجرد من ثوبه وبقى فى القميص المخيط من الخرائط ، فقال له المنصور : ما هذا ؟ قال هذه رقاع صلات مولانا اتخذتها شعاراً ، وبكى ! فأعجب به المنصور وقال له : عندى مزيد !

ويصحب المنصور فى بعض نزهه برياض الزاهرة ، فيمد المنصور يده إلى بعض الترنجان يعبث به ثم يرميه إليه معرّضاً أن يصفه ، فيقول صاعد شعراً لطيفا على البديهة فى وصف الترنجان وقد ضمنه مدح المنصور :

كأنما الحاجب المنصور علمه فعل الجميل فطابت منه أخلاق

وهكذا أصبح صاعد فى نفس المنصور . ويساعده الحظ يوماً فيهدى للمنصور أيلا وقد سمى هـذا الأيل غرسية ، وهو اسم غرسية بن شانجة صاحب قشتيلة وأعدى أعداء المنصور ، ويبعث معه بشعر يقول فيه :

سميتـهُ غرسيةً وبعثتهُ فى حبله ليتاح فيه تفاؤلى

فيشاء حظ صاعد أن كان أسر غرسية بن شانجة فى نفس اليوم الذى وصل الأيل فيه مربوطاً ومعه هذا الشعر ، وكان ذلك فى ربيع الأول سنة خمس وثمانين وثلثمائة . وهكذا يكون الجدّ للصاحب والمصحوب .

ويكمل صاعد كتابه « النصوص » وهو ذلك الكتاب الذى وعد المنصور أنه سيكون أجلّ قدراً من كتاب أبى على ، ويتتبعه أدباء قرطبة بالنقد والتجريح ، حتى زعموا أنه لم تمرّ فيه كلمة لها وجه من الصحة ولا خبر ثابت لديهم ، ثم جاءوا للمنصور وقالوا له : رجل مقتدر على تأليف الكذب من عيون الأدب يسندها إلى شيوخ لم يرهم ولا أخذ عنهم . ويتفقون على حيلة من هذه الحيل التى افتنوا فيها ، فيأمر المنصور بتصفير كاغد أبيض وتغيير بهجته ليدل على القدم ، ويترجم على ظهر ذلك السفر بكتاب النكت تأليف أبى الغوث الصنعانى . ويُدعى صاعد ، فحين يرى هذا الكتاب يترامى عليه ثم أخذ يقلبه وقال : إنى والله قرأته بالبلد الفلانى على الشيخ أبى فلان وهذا خطه . فأخذه المنصور من يده خوفاً من أن يفتحه وقال له : إن كنت رأيته كما تزعم فعلام يحتوى ؟ قال : ورأسك لقد بعد عهدى به ولا أنصّ منه شيئاً ، ولكنه يحتوى على لغة منثورة لا يشوبها شعر ولا خبر . فقال له المنصور : أبعد الله مثلك . فما رأيت الذى هو أكذب منك ! ثم أمر بإخراجه ، وأن يقذف بكتاب النصوص فى النهر . ويفرح الشعراء القرطبيون ويشمتون فى صاعد ويسخرون منه . فهذا الكتاب الكبير القدر الذى جلس صاعد لتأليفه فى جامع الزاهرة والذى كان بغية المنصور منه قد ظهر كذبه فيه وادعاؤه ، وها قد أمر المنصور فأُلقى به فى النهر ، فأى ظفر بصاحبهم أحسن من هذا الظفر ! ويبعث إليه بعضهم بهذا البيت الساخر :

قد غاص فى البحر كتاب النصوص وهكذا كل ثقيـل يغوص

فيجيبه صاعد :

عاد إلى معـــدنه إنما . توجد فى قعر البحار الفصوص

وليس من المعقول أن يجىء هذا الكتاب كله كذب وإدعاءاً . والحق أنه كان عملا قاسياً غريباً من المنصور حين أمر بأن يلقى الكتاب فى النهر ، لكن المنصور فيما يظهر تسرع بتأثير هؤلاء الأدباء وبما ظهر من كذب صاعد . وفى ذلك يقول ابن بسام : « وما أحسب أن أحداً يجترئ على إخراج تصنيف وإبداء تأليف يضيق عنه التعديل ، ويدفع فى صدره النقد والتحصيل ، لاسيما وصاعد علم أن قرطبة — حسب ماذكرنا — ميدان جياد، وبلد جدال وجلاد . لكنه اشترط غير المشهور ، فلم يظفروا منه بكثير ، وأعانهم هو على نفسه بما كان يتنفق من تنحله وكذبه ، ولم يكن عنـد ابن أبى عامر تحرير ولا بصر بالنقد مشهور ، وإلا فليس يخلو كتاب النصوص من غريبة مسموعة ، ولا من فائدة رائعة بديعة . »

ويتتابع المكروه على صاعد بعد ذلك باشتعال الفتنة وتفرق بعض الأمراء الذين اتصل بهم وكتب لهم ، حتى اختل صاعد وعجز عن ستر ولده وأهله . ويموت المنصور بن أبى عامر فيطلب صاعد إلى الخليفة الصغير هشام أن يأمر بتسريحه فلا يأذن له بالانطلاق عن الأندلس خوفاً من خبث لسانه ، فخرج صاعد مستخفياً ، وجاز ببلدة شلطيش وكان ذلك عام ٤٠٣ هـ ، ثم يتصل صاعد بصاحب صقلية ، فيقربه إليه ويفارق البؤس ويراجع النعمة . ويتغلب البرابرة أخيراً على قرطبة فيرجع صاعد إليها ليعود بمن تركهم من أهله وولده ، ويحاول أن يتصل ببعض هؤلاء الأمراء من البرابرة فلا يفلح ، فيعجل الانكفاء إلى صقلية ويموت بها سنة ٤١٠ هـ .

هذه قصة صاعد الأندلسى ذلك النجم المشرق الذى غرّب ليكون له حظ أبى على القالى ، فجاهد ماجاهد ، ولقى من الكيد ما لقى ، وأخيراً ألقى بكتابه فى نهر قرطبة ، ومات وهو على أسوأ حال فى صقلية !

محمد عبده عزام